

دراسة المنهج النقدي للفيض الكاشاني

لمسألة القيامة في النظام الفلسفي الصدراي¹

رضا أكبريان ونجمه سادات رادفر

ترجمة حسن طاهر

الكلمات المفتاحية: ملاً صدرا، الفيض الكاشاني، القيامة، مراتب الوجود، العقل، الشرع.

تعرضت مسألة القيامة ومفهومها الفلسفي المتطابق مع مراتب الوجود في النظام الفكري لمدرسة صدر الدين الشيرازي إلى النقد والتمحيص في المنظومة الفكرية لتلميذه الأبرز الفيض الكاشاني. إذ آل تغيير رؤية الفيض الكاشاني لمسألة العقل إلى تقديم عرض أكثر اعتدالاً في ما يخص علاقة الشرع بالعقل، وأدى هذا التغيير، بدوره، إلى تبدل في نظرتة لمسألة القيامة في مراحل حياته المختلفة. ومن خلال دراسة أعماله التي خلفها في شبابه، وتلك التي ألفتها في فترات لاحقة، يتضح التحول الجوهرية في اتجاهاته الفكرية في ما يخص مسألة القيامة ومراتبها، وتباين المناهج التي اتبعتها في تفسيرها، بحيث تبدأ من نظرتة إلى القيامة بحسب مراتب وجود الإنسان وتنتهي بالرؤية القائمة على الزمن التاريخي.

المقدمة

تعدّ مسألة القيامة ومراتبها إحدى المسائل المهمة التي ترتبط بالآخرة، كما تعددت الآراء والنظريات التي وضعها المفكرون المسلمون إزاءها، وفي هذا السياق أدى النهج الجديد الذي اتخذه صدر المتأهين الشيرازي، الفيلسوف البارز، في تفسير الوجود ومراتبه ضمن نظامه الفلسفي إلى النجاح في تقديم نظرية بديعة في هذا المبحث، نظرية تقوم على رؤية خاصة وتفسير جديد للآيات والأحاديث الشريفة. وبغض الطرف عن صحّة التفسير الصدراي للقيامة، فإنه يتمتع بانسجام وتناسق فدّ في مجمل نظامه الفلسفي، بحيث لا يرى فيه تناقض. وهذا لا يعني قطعاً، أنّ المفكرين الآخرين لم يقدموا نقداً له، بل جرت مباحثات نقدية جادة لهذه النظرية على يد تلاميذ مدرسة الحكمة المتعالية نفسها، إلى درجة أننا نرى في بعض الأحيان عدولاً عن آراء ملاً صدرا.

¹ بحث نُشر في مجلّة مرآة المعرفة 11 (طهران: منشورات جامعة الشهيد بهشتي، 1388 هـ. ش.)، وهي مجلّة فصلية تعنى بالفلسفة والكلام الإسلامي.

يعتبر محسن الكاشاني، الملقب بالفيض، أحد تلامذة صدر الدين الشيرازي في الحكمة والفلسفة، وهو من أهمّ الشارحين لأفكاره والمروّجين لعقائده، ومع ذلك نراه في كثير من الأحيان يبتعد عن طريقة أستاذه، متّخذاً لنفسه رأياً خاصاً. سنحاول، في مطاوي هذه المقالة، أن نتطرّق إلى مسألة القيامة ومراتبها من وجهة نظر هذين الحكيمين والفيلسوفين المتأهّنين، لنرى مدى اختلافهما واتّفاقهما، حتّى يتسنى لنا في النهاية أن نعلم مدى التزام التلميذ بأراء أستاذه صدر الحكماء.

وعليه، سنحاول بدايةً تقييم وجهة نظر ملاً صدرًا في مبحث القيامة ومراتبها، ومن ثمّ سنعرّج على دراسة آراء الفيض الكاشاني في الموضوع ذاته. ومن ثمّ سنعرّج على الموقف النقديّ الذي اتّخذه الفيض من الفكر الصدرايّي.

رأي الملاً صدرًا في مسألة القيامة ومراتبها

لا تقع القيامة ضمن الزمن التاريخي كما يبدو من ظاهر الآيات القرآنيّة. إذ سيأتي يوم ما تبدأ فيه علامات القيامة بالظهور: فستُظلم الشمس، وتتناثر الكواكب²، وتنزل الأرض³، وما إلى ذلك. لكن للقيامة مراتب متطابقة مع مراتب الوجود الإنسانيّ. إذ تجلّت حقيقة الحقائق التي هي الفطرة الأولى⁴ والعدم الأصليّ⁵ من حضرة الأحديّة الأقدس، واختمرت فطرة الإنسان بها، وهي المعبرّ عنها بحقيقة التوحيد كما يشير القرآن الكريم: {فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ} ⁶. وفي الواقع تُعتبر هذه المرتبة أصل كلّ الأشياء والموجودات، وعنصر

² {إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ}؛ سورة التكوّير، الآيتان 1 و2.

³ {إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا}؛ سورة الزلزلة، الآية 1.

⁴ "الفطرة الأولى هي حقيقة حقائق الأشياء، هي الحقيقة المحمّديّة نفسها، وقد خلقت من حضرة الذات الأحديّة"؛ للمزيد، انظر، عليّ نوري، تعليقات بر اسرار الآيات (طهران: انتشارات حكمت، 1385 هـ. ش.)، الصفحتان 438 و439.

⁵ المقصود من العدم الأصليّ هو أنّه بسبب عدم اتّصاف هذا العدم بأيّ حدّ من حدود الموجودات، فهو، إذ ذاك، لا يكون واحدًا، حتّى لو كان في الوقت نفسه أصل الموجودات كلّها ومصدرها. وعليه، فكلمة العدم هنا لا تعني العدم بالمعنى الفلسفيّ المعروف في مقابل الوجود، بل تعني شيئًا آخر يتوقّف فهمه على الدقّة والانتباه.

للمزيد، انظر، عبد الرحمان بن أحمد الجامي، نقد النصوص في شرح نقش الفصوص (طهران: مؤسسه ى مطالعات وتحقيقات فرهنگي، لا تاريخ)، الصفحات 20 إلى 37.

⁶ سورة الروم، الآية 30.

العناصر، ومن حيث المرتبة هي سابقة للكل، وبها ترتبط حياة كل شيء⁷. والإنسان بدوره ينزل إلى الوجود من ساحة الإمكان عبر القوس النزولي. يصبح للإنسان - كما لكل شيء - حدّ ومرتبة من الوجود. تنتقل الموجودات عبر السير النزوليّ من مرتبة الكمال العالي إلى مرتبة الكمال الداني⁸. ويعبّر ملاً صدرا عن هذه العمليّة باسم "السقوط الأوّل"، "السقوط الأوّل للإنسان من الفطرة، أي من العدم إلى الوجود وهو الجنة التي كان فيها أبونا آدم وأمتنا حواء، كما قال: { يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ }⁹10. وفي الواقع، هذه الجنّة عبارة عن عالمين، (1) عالم الملكوت الروحانيّ، و(2) عالم الملكوت الصوريّ. أمّا عالم الملكوت الروحانيّ فهو عالم الأرواح العقليّة والأعيان الثابتة¹¹، وأمّا عالم الملكوت الصوريّ فهو عالم النفوس والخيال الكلّي¹². ومن ثمّ يحين السقوط الثاني للإنسان، وهو المهبوط إلى دار الدنيا، { اهبطوا منها جميعاً }¹³، وهو عالم المادّة، وأدنى مراتب الوجود من حيث الكمالات الوجوديّة. وهكذا يكتمل القوس النزوليّ للموجودات¹⁴. ومن ناحية أخرى فإنّ كلّ الكائنات في

⁷ للمزيد، انظر، صدر الدين الشيرازي، مفاتيح الغيب (طهران: انجمن حكمت وفلسفه، 1363 هـ. ش.)، الصفحة 626.

⁸ للمزيد، انظر، صدر الدين الشيرازي، الشواهد الربوبية في المناهج السلوكية، تحقيق مصطفى محقق داماد (طهران: بنياد حكمت اسلامي صدرا، 1382 هـ. ش.)، الصفحة 172.

⁹ سورة البقرة، الآية 35.

¹⁰ صدر الدين الشيرازي، أسرار الآيات، تحقيق محمّد موسى (طهران: انتشارات حكمت، 1385 هـ. ش.)، الصفحتان 65 و66.

وفي الترجمة العربيّة استفدنا من، صدر الدين الشيرازي، أسرار الآيات، تحقيق محمّد خواجوي (بيروت: دار الأضواء، 1993)، الصفحة 167. المحجّة.

¹¹ الأعيان الثابتة هي أعيان حقائق الممكنات في علم الحقّ تعالى. بالطبع تعدّ الحقائق الوجوديّة، أيضاً، جزءاً من الأعيان الثابتة. ولكن أحياناً يُقصد من الأعيان جزء منها فحسب.

للمزيد، انظر، عبد الرزاق الكاشاني، اصطلاحات الصوفيّة، تصحيح وتعليق مجيد هادي زاده (طهران: انتشارات حكمت، 1381 هـ. ش.)، الصفحة 10.

¹² تعليقات بر اسرار الآيات، مصدر سابق، الصفحة 439.

¹³ سورة البقرة، الآية 38.

¹⁴ يجب الانتباه إلى أنّ هذا القوس، بلحاظ كيميّة خلق الموجودات التكوينية، يعني الخلق التكوينيّ، وهو عبارة عن صدور الوجود من الواجب، مع الأخذ بالاعتبار صلاحية الشيء وقابليته، وإلاّ فإنّ الخلق الإبداعيّ، وهو شكل آخر للخلق، هو صدور الوجود من الواجب من دون مشاركة قابلية الشيء المخلوق، للمزيد، انظر، الشواهد الربوبية، مصدر سابق، الصفحة 219 فصاعداً.

مسيرة العودة إلى المبدأ الأول، والمكان الذي فيه هبطت، تقطع القوس الصعودي نحو الفطرة الأولى¹⁵، وهذا هو معادها وقيامتها، كما يشير القرآن الكريم: { كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ }¹⁶. تنتقل النفس من مرتبة المادة إلى مرتبة الخيال والنفوس، وهي البرزخ، وبصعودها منه إلى المرتبة العقلية الروحانية تشهد النشأة الأخرى¹⁷.

ينقل ملاً صدرا عن صاحب الكشف أنّ القيامة تسمى بالساعة من السعي، وليس المراد منه الحركة في المكان، بل يعني أنّ النفوس تسعى في حركة جوهرية ذاتية وتوجه فطري نحو تعالي، لذلك قيل "من مات فقد قامت قيامته"¹⁸. وفي الواقع، فإنّ النفس، كما سائر الكائنات، شأنها التغيير والانقلاب¹⁹

وإنما وصفها بالاطمينان، وهو السكون العقلي، لأنّ النفس قبل صيرورتها عقلاً بالفعل شأنها التغيير والانقلاب، فإذا صارت مطمئنة عقلياً رجعت إلى ربها، { يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً }⁽²⁰⁾ (21).

وبالتالي، فإنّ النفس تنتقل من مرحلة وجودية أدنى إلى مرحلة أعلى، وتقوم قيامتها حين انتقالها كلّ مرّة، ولذلك فإنّ للقيامه وللنشأة الأخرى مراتب تتناسب مع مراتب تكامل النفس في القوس الصعودي. لا مكان هنا للزمن والتوقيت، فأمر القيامه من سنخ آخر. وتحصل مراتب القيامه لكلّ نفس على حدة على القوس الصعودي، وهذه المراتب هي: القيامه الصغرى، والقيامه الوسطى، والقيامه الكبرى، والقيامه العظمى.

¹⁵ أسرار الآيات، مصدر سابق، الصفحة 22.

¹⁶ سورة الأعراف، الآية 29.

¹⁷ للمزيد، انظر، صدر الدين الشيرازي، تفسير سورة واقعه، ترجمة وتعليق محمد خواجوی (طهران: انتشارات مولی، 1363 هـ. ش.)، الصفحة 171.

¹⁸ المصدر نفسه، الصفحة 167.

¹⁹ وها هنا إشارة إلى الحركة الجوهرية التي رفع قواعدها الملاً صدرا.

²⁰ سورة الفجر، الآيتان 27 و28.

²¹ أسرار الآيات، مصدر سابق، الصفحة 94.

تقوم أول مرتبة للقيامة، أي القيامة الصغرى، بمفارقة البدن العنصري والصعود عن حضيض المادة، للوصول إلى مرتبة عالم الخيال، وهو الموت الطبيعي²²، كما جاء في الحديث النبوي: "من مات فقد قامت قيامته"²³. ومع قيام القيامة الصغرى

انفطرت سماؤه التي هي أمّ دماغه²⁴، وانتثرت كواكبه التي هي قواه المدركة²⁵، وانكدرت نجومه التي هي حواسه، وكوّرت شمسها التي هي قلبه ومنبع أنوار قواه وحرارته الغريزية²⁶، وتزلزلت أرضه التي هي بدنه²⁷، ودكّت جباله التي هي عظامه²⁸، وحشرت وحوشه التي هي قواه المحركة، سيّما الغضبيّة⁽²⁹⁾⁽³⁰⁾.

وبعد قيام القيامة الصغرى

يتابع الوجود المثاليّ للبدن حركته على القوس الصعوديّ، وإذا استطاعت النفس أن تعبر هذه المرحلة الوجوديّة وتتحرّر من قالبها المثاليّ - كما تحرّرت قبل من قالبها العنصريّ أثناء القيامة الصغرى - فإنّها تدخل العالم الروحانيّ المعنويّ الذي هو عالم المجرّدات، وهنا تقوم قيامة أخرى للنفس، وهي القيامة الوسطى³¹.

وفي هذه المرتبة تموت النفس الإنسانيّة عن النشأة المثاليّة بنزع القالب المثاليّ، ويسمّى هذا الموت بموت الفزع، وآية {يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَنَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ} ³² خير مصداق على هذا الموت.

²² للمزيد، انظر، الشواهد الربوبية، مصدر سابق، الصفحة 353.

²³ محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، الجزء 58 (طهران: دار الكتب الإسلامية، 1361 هـ. ش.)، الصفحة 7.

²⁴ {إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ}؛ سورة الانفطار، الآية 1.

²⁵ {وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ}؛ سورة نفسها، الآية 2.

²⁶ {إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ}؛ سورة التكوير، الآية 1.

²⁷ {إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا}؛ سورة الزلزلة، الآية 1.

²⁸ {كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا}؛ سورة الفجر، الآية 21.

²⁹ {وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ}؛ سورة التكوير، الآية 5.

³⁰ أسرار الآيات، مصدر سابق، الصفحة 95.

³¹ للمزيد، انظر، صدر الدين الشيرازي، تفسير سوره های طارق، أعلى وزلزال، تحقيق وتصحيح محمد خواجهي (طهران:

انتشارات مولى، 1363 هـ. ش.)، الصفحة 172.

عندما تموت النفوس موت الفزع تحيا مرةً أخرى، وتدخل مرتبةً أعلى، وهي مرحلة التجرد العقليّ، ويعبر عنها بنفخ الصور³³. ومن ثمّ تصل النفس إلى السكينة العقلية³⁴، ويعبر عنها من الآن فصاعدًا بـ"الروح"، {قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي} ³⁵. لا مكان هنا لكثرة النفوس، فالروح في ذاتها واحدة، ولا تكثّر في عالم الروح، كما يقول عزّ وجلّ: {وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَّمِحٍ بِالْبَصْرِ} ³⁶. وإلى الآن لم تصل الروح إلى موطنها الأصليّ الذي منه هبطت، وإذا استطاعت الروح في سيرها هذا أن تتمتع بكمالات وجودية أعلى فإنّها تصعد إلى مرتبة تتحقّق فيها قيامتها الكبرى، وتكمل بذلك قوسها الصعوديّ عائدةً إلى الفطرة الأولى، ويعبر عن هذه المرتبة برتبة الإنسان الكامل، والحقيقة الحمديّة، ومقام عند⁽³⁷⁾(38). لا تقوم قيامة الإنسان ما دام في حجاب الدنيا، أمّا حينما يفنى عن نفسه ويصل إلى مقام عند يتحلّى بالبصيرة التي يرى بها الله وملكوته الآخرة³⁹.

يصرّح ملاً صدرا بأنّه إذا أراد أحد أن يفهم معنى القيامة الكبرى فعليه أن يتأمّل في القواعد الفلسفيّة تأملاً كافياً⁴⁰. وبالتالي لا يمكن أن ندرك معاني القيامة ومراتبها، كما اختطّت في النظام الفلسفيّ الصدرايّي، إلّا إذا قبلنا مبادئ النظام إياه ومقدّماته، من مثل (1) الوجود ومراتبه، و(2) إثبات الغايات الذاتية للأشياء الطبيعية، و(3) توجه كلّ أدنى لكلّ أعلى، و(4) رجوع كلّ شيء إلى أصله، و(5) الحركة الجوهرية التي تتحوّل من خلالها ذوات الأشياء وتسعى نحو كمالها، و(6) قوسي الصعود والنزول، والكثير من المبادئ الفلسفيّة الأخرى. وكأنّ النظام الصدرايّي مركّب من أجزاء مرتبطة بعضها ببعض، بحيث لا يمكن أن نفهم مسألة القيامة، ولا سيّما مرحلتها الأخيرة، إلّا إذا فهمنا المسائل الأخرى المتقدّمة عليها من الناحية الوجودية، يرى ملاً صدرا أن

³² سورة النمل، الآية 87.

³³ انظر، الشواهد الربوبية، مصدر سابق، الصفحة 90.

³⁴ أسرار الآيات، مصدر سابق، الصفحة 94.

³⁵ سورة الإسراء، الآية 85.

³⁶ سورة القمر، الآية 50.

³⁷ حين يفنى السالك في التوحيد يصل إلى مقام "عند الله"، وهذا هو المعبر عنه بـ"مقام عند".

³⁸ للمزيد، انظر، الشواهد الربوبية، الصفحة 166.

³⁹ المصدر نفسه، الصفحة 169.

⁴⁰ المصدر نفسه، الصفحة 172.

ثمّ مرتبة أخرى تنتظر الروح بعد وصولها إلى فناء التوحيد ومقام عند، وهي "القيامة العظمى"⁴¹. وهي آخر مرتبة من مراتب القيامة، أو آخر مرتبة من المراتب الوجودية للنفس. وبحصولها يختم الإنسان القوس الصعودي، ويصل إلى المرتبة الوجودية الأولى التي تنزل منها في قوس النزول.

وبعد أن عرضنا رأي ملاً صدرا في القيامة ومراتبها، نكمل بحثنا بدراسة هذا الموضوع من وجهة نظر الفيض الكاشاني ورأيه في منهج ملاً صدرا، وذلك من خلال مؤلفاته المتقدمة منها والمتأخرة.

الفيض الكاشاني والرؤية الصدرائية في مسألة القيامة

تكمن أصالة ملاً صدرا في توحيد أركان ثلاثة للدين، وهي: الوحي، وتزكية النفس من أجل الإشراق، والتبيين العقلي - الفلسفي في رؤية واحدة شاملة تنتهي كل طرقها بالحقيقة الواحدة. حافظ جميع أتباع ملاً صدرا على هذه الوحدة التي أحكم قواعدها على الرغم من أنهم اعتمدوا على جوانب مختلفة من فلسفته⁴².

يُعتبر الملاً محسن الفيض الكاشاني واحداً من ألمع تلامذة ملاً صدرا ومن أبرز فلاسفة الشيعة المنتميين إلى المدرسة الصدرائية. وتعكس مؤلفاته انسجام العقل والوحي والعرفان، وإن كان التأكيد على كل واحد من هذه العناصر الثلاثة يختلف بحسب مؤلفاته المتنوعة. وقد ترك تعريف الفيض على ملاً صدرا أثراً واضحاً على شخصيته من خلال التوجه الحكمي - العرفاني الذي ظهر جلياً في مؤلفاته الأولى، فحتى كتبه الفقهية اتخذت طابعاً باطنياً، إلى أن تغلبت عليه في النهاية نزعة مناهضة التصوف، ومال إلى الحديث والرواية، ما آل إلى تراجع الجانب العرفاني والتأويلي عنده، فاهتم، أكثر ما اهتم، بظاهر الآيات والروايات. ومن خلال دراسة مؤلفات الفيض ومقارنتها مع بعضها بعضاً نخلص إلى أنها لم تجر في مجرى واحد، بل تغيرت رؤاه وأفكاره. ويمكننا أن نقسم هذه الرؤى والأفكار إلى قسمين اثنين: (1) مؤلفات المرحلة الأولى، و(2) مؤلفات المرحلة الثانية، وسنوضح ميزات كل من هاتين المرحلتين.

1. آراء الفيض الكاشاني في مؤلفات المرحلة الأولى

⁴¹ انظر، مفاتيح الغيب، مصدر سابق، الصفحة 635.

⁴² رضا أكبريان، حكمت متعالیه وتفکر فلسفی معاصر (طهران: بنياد حکمت اسلامی صدرا، 1386 هـ. ش.)، الصفحة

تأثرت مؤلفات الكاشاني في هذه المرحلة بأستاذه ملا صدرا، وكذا تأثرت بالتبع إلى حد كبير بابن عربي. وتشير عبارة "يقول أهل المعرفة" التي كان يوردها إلى هذا التأثر. لا نختط في هذه المرحلة شخصية كاملة ومستقلة للفيض الكاشاني، فقد كان يبسط آراء أستاذه بحثًا وتحليلًا، وإذا كان ثمة اختلاف مع أستاذه فلا يعدو كونه اختلافًا جزئيًا لا يعتد به، كما لا يمكن النظر إليه على أنه خارج النظام الفكري لملا صدرا. وبما أن الفيض الكاشاني تميز بالروح الإخبارية منذ البداية نراه يحرص على الاستشهاد بأحاديث للمعصومين، عليهم السلام، محاولًا إثبات صحة ما يدعيه، ومن هنا كانت مؤلفاته في هذه المرحلة تعج بالأحاديث والروايات. وأما في مسألة القيامة فلا نرى بينه وبين أستاذه اختلافًا يذكر، بل تشابحت آراؤهما إلى حد كبير، ما خلا بعض الموارد الجزئية التي سنتطرق إليها في هذه المقالة.

اتفاق آراء الفيض الكاشاني مع ملا صدرا في معنى القيامة ومراتبها

يتضح لدينا من خلال مطالعة الآراء الفلسفية للفيض في المرحلة الأولى ومن خلال التعمق فيها أنه كان مؤيدًا، كل تأكيد، لوجهة نظر أستاذه في معنى القيامة ومراتبها. بل كان يأتي بالأدلة الروائية ليثبت صحة آراء أستاذه. وقد صرح في مسألة مراتب الوجود أو النشأة الوجودية بأن مراتب الصدور تبدأ من النشأة العقلية التي هي مرتبة الأئمة بحسب حديث للإمام الصادق، عليه السلام⁴³. ومن ثم تأتي المرتبة المثالية التي تتمتع بالحياة، والبقاء، والنور، والظهور، والإدراك، وأدنى المراتب هي مرحلة المادة والدنيا. وهكذا يوضح الفيض المراتب الوجودية في طي الصدور عن الحق تعالى، وبما أن كل الأشياء متجهة إلى الحق توجّهًا غريزيًا جبليًا فهي تسعى إليه في أنات وجودها⁴⁴، وتحين ساعتها في كل انتقال جديد. يصرح الفيض بأن كلمة "الساعة" مأخوذة من السعي، لأن جميع الأشياء متوجهة إليه تعالى ساعية نحوه⁴⁵، وهو يتفق بذلك مع أستاذه. وثم شاهد آخر يدل على أن الفيض كان يقتفي أثر أستاذه في مؤلفاته الفلسفية، ألا وهو فهمه لموضوع القيامة. لا تقوم القيامة في عيون الفيض في برهة

⁴³ للمزيد، انظر، محسن فيض الكاشاني، أصول المعارف، تعليق وتصحيح جلال الدين الآشتياني (طهران: دفتر تبليغات اسلامي، 1362 هـ. ش.)، الصفحة 183.

⁴⁴ يصرح الفيض بأن كل قدم يخطوها الإنسان تقرّبه من الآخرة، وتحدّد مصيره الأبدى، وهو المشي على الصراط. انظر، محسن فيض الكاشاني، الصافي، الجزء 1 (طهران: كتابفروشي اسلاميه، 1376 هـ. ش.)، الصفحة 8.

⁴⁵ محسن فيض الكاشاني، علم اليقين في أصول الدين، تصحيح وتعليق محسن بيدارفر، الجزء 2 (بيروت: مؤسسة التاريخ العربي، لا تاريخ)، الصفحة 895.

من الزمن، وليس لها وقت بالمعنى المتعارف عليه. إنّما تتطابق مراتبها مع مراتب الوجود. يورد الفيض في كتاب علم اليقين في أصول الدين في باب أحوال البرزخ:

الدنيا والآخرة حالتان للنفس، وأن يقال إنّ النشأة الثانية عبارة عن خروج النفس عن غبار هذه الهيئة البدنية، فمن قبل أن تخرج عن البدن لا ترى تلك الصور إلا مشاهدةً ضعيفة، وذاك أيضًا لبعض الناس، وإذا تجرّدت، وارتفعت الشواغل، وقوى العزيمة، وانحصرت القوى كلّها في قوة واحدة، وهي المتخيّلة على ما حقّقنا فيما قبل، تصير هي قوة فعّالة وعينًا باصرة، [و] ينقلب العلم مشاهدةً والمسموع مشاهدةً⁴⁶.

إذا يرى الفيض بأنّ القيامة والنشأة الآخرة مرتبطتان بالشخص في ذاته. وعليه فقيامه كلّ إنسان تقوم عليه فحسب، وتخصّصه هو لا غير، وتحصل بموته الطبيعيّ أو نتيجةً لطهارته الروحية. يشير الفيض في ذيل بحث الموت إلى مراتب الروح نقلًا عن بعض العرفاء⁴⁷، فيقول: "إنّ للإنسان في كلّ نفس موتًا جديدًا، وبعثًا منه، وحشرًا إلى ما بعده، وأنّ عدد الموت والبعث والحشر كثير لا يحصى، بل هي بعدد أنفاس الخلائق"⁴⁸.

وعليه، يمكننا القول بأنّنا أمام آراء ملام صدرنا نفسها في معنى القيامة وتعدّد مراتب الوجود، إذ تتبّع الفيض في هذه المرحلة أثر أستاذه. يعرّب ملام محسن الكاشاني عن المرتبة الأولى من مراتب القيامة بـ"القيامة الصغرى"، وهي عبارة عن الموت الطبيعيّ ومفارقة النفس للبدن⁴⁹، ويذكر الحديث نفسه الذي كان قد ذكره ملام صدرنا قبله في هذا البحث، ألا وهو "من مات فقد قامت قيامته"⁵⁰. كما يقدّم تفسيرًا للآيات المتعلقة بالقيامة كتفسير أستاذه، فيقول

فإذا أهدّ بالموت بدنك، وهو أرضك الخاصّ بك، فقد زلزلت الأرض زلزالها⁵¹. وإذا رمّت عظامك، وهي جبال أرضك، وقد دكّتا دكّةً واحدة، فقد نسفت جبالك نسفًا⁵². وإذا أظلم قلبك عند النزاع، وهو شمس

⁴⁶ المصدر نفسه، الصفحة 890.

⁴⁷ يبدو أنّ المقصود من أهل المعرفة في عبارة "يقول أهل المعرفة" هم ابن عربي وشارحي كتبه، كما أنّنا نرى مثل هذه التعابير أيضًا في مؤلّفات ملام صدرنا، وذلك بسبب خصوصيات مؤلّفات هذه المرحلة التي تعكس الانسجام الفكريّ بين الفيض وأستاذه.

⁴⁸ علم اليقين في أصول الدين، مصدر سابق، الصفحة 848.

⁴⁹ المصدر نفسه، الصفحة 849.

⁵⁰ المصدر نفسه، الصفحة 849، نقلًا عن بحار الأنوار، الجزء 58، مصدر سابق، الصفحة 7.

⁵¹ {إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا}؛ سورة الزلزلة، الآية 1.

عالمك، فقد كوّرت شمسك⁵³. وإذا بطلت حواسك فقد انكدرت نجومك⁵⁴. وإذا انشقّ دماغك فقد انشقت سماءك [سماؤك]⁵⁵. وإذا انفجرت من هول الموت عينك، وفاض عرق جبينك فقد فُجرت بحارك⁵⁶، وإذا تفرقت قواك، وانتشرت جنودك، فقد حشرت وحوشك⁽⁵⁷⁾⁽⁵⁸⁾.

طبعاً تمّ اختلاف بين هذين الفيلسوفين المتألهين في إطلاق اسم القيامة الصغرى. فعلى الرغم من أنّ الفيض لا يتطرق إلى ذلك بصراحة، ولكن يمكن لنا أن نبيّن أوجه هذا الاختلاف من فحوى كلامه، وهو أنّ مرتبة الخيال والحسّ تصبح واحدة بعد الموت⁽⁵⁹⁾⁽⁶⁰⁾. ومن هنا تستمرّ القيامة الصغرى اعتباراً من لحظة الموت حتّى الوصول إلى المرتبة العقلية سيراً على القوس الصعودي، فيما يرى صدر الحكماء أنّ النفس تصاب بـ"موت الفرع" قبل الوصول إلى المرتبة العقلية، وتقوم قيامتها الوسطى، كما رأينا، ومن ثمّ تصل إلى المرتبة العقلية. كذلك يحصر المحقق الفيض - في مكان آخر - القيامة بقسمين: صغرى وكبرى، معتبراً أنّ القيامة الصغرى تحصل بالموت الطبيعي في العالم الصغير⁶¹، وبناءً على ذلك فإنّ اسم "القيامة الصغرى" عند الفيض الكاشاني يتضمّن المرتبة الأولى والثانية التي هي الوسطى عند ملاً صدرها. وعلى أيّ حال لا يختلف الفيض في هذه المرحلة عن ملاً صدرها في معالجة مسألة القيامة ومراتبها بالنظر إليها من خلال تعدّد مراتب الوجود، وعدم وقوعها في حيّز الزمن، نظراً ستشهد تعبيراً جوهرياً في المرحلة الثانية من حياة الفيض الكاشاني.

⁵² {وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ}؛ سورة التكوير، الآية 3.

⁵³ {إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ}؛ السورة نفسها، الآية 1.

⁵⁴ {وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ}؛ السورة نفسها، الآية 2.

⁵⁵ {إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ}؛ سورة الانفطار، الآية 1.

⁵⁶ {وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ}؛ سورة الانفطار، الآية 3.

⁵⁷ {وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ}؛ سورة التكوير، الآية 5.

⁵⁸ علم اليقين في أصول الدين، مصدر سابق، الصفحتان 849 و850.

⁵⁹ طبعاً يطرح ملاً صدرها كذلك في بعض أقسام الأسفار فكرة وحدة قوى الحسّ والخيال بعد الموت، ولكنّه في مسألة القيامة يعتبر أنّ القيامة الوسطى والصغرى مرتبتان مختلفتان بخلاف الفيض الذي حذف مرتبة القيامة الوسطى.

⁶⁰ للمزيد، انظر، أصول المعارف، مصدر سابق، الصفحة 197.

⁶¹ علم اليقين في أصول الدين، مصدر سابق، الصفحة 849.

يحصّر الفيض الكاشاني القيامة بقسمين: كبرى وصغرى، وذلك إبان حديثه عن مراتب القيامة في كتاب **علم اليقين** الذي يعدّ من جملة مؤلفاته في المرحلة الأولى. يعرف الفيض القيامة الكبرى فيقول إنّ: "القيامة الكبرى عبارة عن موت جميع أفراد العالم الكبير"⁶². ويقصد من هذه العبارة أنّه أثناء قيام القيامة الكبرى تصل الروح إلى مرتبة تنعدم فيها الكثرة الوجوديّة، وهي مرتبة التجرد العقليّ التي تسمّى بالعالم الكبير، وفي الوقت نفسه لا يفنى شيء مما يخصّ الإنسان في قيامته الكبرى⁶³، وهذا البيان قريب ومشابه لبيان صدر الحكماء.

وكذلك نعثّر في بيان الفيض الكاشاني المرتبة الأخيرة التي عبّر عنها صدر الحكماء بالحقيقة المحمّديّة. إذ يصرّح الفيض بأنّ المرتبة النهائيّة المتطابقة مع المرتبة الأولى للوجود هي نفسها الفطرة الأولى، وهي مقام النبيّ الأكرم، صلّى الله عليه وآله، والأئمة المعصومين، عليهم السلام⁶⁴. لم يبسط الفيض الكاشاني للمرتبة الرابعة، أي القيامة العظمى، معتبراً أنّ القيامة الكبرى هي آخر مراتب القيامة.

ومن خلال ما تقدّم نرى أنّ الفيض في هذه المرحلة التزم بمتابعة أستاذه في التعاليم الفلسفيّة، وهو يعتبر من رواد حوزة الحكمة المتعالية، الأمر الذي لم يدم طويلاً، حيث سنشهد تفاوتاً جوهريّاً في المرحلة الثانية، ما يدلّ على نضوج الفيض وأستاذيّته، ويعبّر عن شخصيّته الفكرية المستقلّة، فلن يعتمد على العقل - كأستاذه - كثير اعتماداً، وسيجعل من الآيات والأحاديث الشريفة الملاك الأساس لفهم القضايا. لا يخرج هذا الاختلاف الفيض عن زمرة فلاسفة الحكمة المتعالية، ولكنّه يجعله صاحب شخصيّة مستقلّة في الفكر الفلسفيّ - العرفانيّ. أمّا الآن فسنبحث في مفهوم القيامة ومراتبها كما بسط لها الفيض في مؤلفاته المتأخّرة حتّى نصل إلى طبيعة نظرة الكاشاني النقديّة.

2. الرؤية النقديّة للفيض الكاشاني في مؤلّفات المرحلة الثانية

توضيح الرؤية النقديّة في المرحلة الثانية

⁶² المصدر نفسه، الصفحة 849.

⁶³ انظر، المصدر نفسه، الصفحة 850.

⁶⁴ للمزيد، انظر، محسن فيض الكاشاني، الشافي في العقائد والأخلاق والأحكام، تحقيق مهدي الأنصاري القميّ (طهران: انتشارات لوح محفوظ، 1382 هـ. ش.)، الصفحة 63.

يبتعد الفيض عن أستاذه في هذه المرحلة. ومن خلال قلة تأكيده على العقل، بخلاف ملاً صدرا، يولي وجهه شطر الأحاديث والروايات⁶⁵، ويهتم بالجانب الظاهريّ إلى درجة يُخيّل للبعض بأنه من أتباع المدرسة الإخبارية، ففي رسالة **الإنصاف** ينظر نظراً نقديّةً إلى مؤلفاته السابقة، ويرى بأنّها حصيلة سعي سنوات من عمره قضاها في تتبّع أحوال المتكلّمين، والفلاسفة، والمتصوّفة، وأمثالهم. وكذا صرّح بأنّه لم يقصد البتّة أن يجاريهم في معتقداتهم⁶⁶. فهو يرى أنّهم يتصوِّرون أن تمّ أشياء في علومهم ليست موجودة في الشرع، ولذلك كان يحاول أن يعثر على الحقائق الباطنيّة لهذه العلوم في ثنايا الأخبار والأحاديث، وبذلك يصنع جسراً بين الشريعة، من جهة، وبين ما يأتي عبر الباطن، والحقيقة، والبرهان، والعقل، من جهة ثانية⁶⁷. يؤكّد الفيض بأنّ "العقل في نفسه قليل الفناء"، لذلك لا يستطيع بمفرده أن يصل إلى معرفة كليات الأمور وجزئياتها، ولكنّه يدرك الكليات فحسب، وهو بحاجة إلى الشرع بغية معرفة الجزئيات. وبالتالي لا يمكن النفاذ إلى جزئيات الأمور المؤدّية إلى مصالح الدنيا والآخرة، وكذا الاهتداء إليها، إلّا عن طريق الشرع، فعلى سبيل المثال: لا يعلم العقل سبب تحريم كثير من الأمور من مثل لحم الخنزير والخمر، في حين أنّ الشرع، بعلمه بمصالح الأمور، وضع أمام الإنسان نظاماً للاعتقادات الصحيحة والأفعال السليمة المطلوبة التي تؤدّي إلى خير الدنيا والآخرة⁶⁸.

يعتبر الفيض، إذاً، أنّ البحث العقليّ – الفلسفيّ غير كاف للوصول إلى الحقائق، وأنّه لا بدّ من العمل الصالح، والمداومة على العبادة والكشف والشهود، وطلب الإشراق الباطنيّ والعرفان في الأحاديث والروايات من أجل تهيئة أساس صلب للنفاذ إلى الحقيقة، ومن دون ذلك يقطع الإنسان نصف الطريق فحسب، أو ربّما ينحرف عن الجادة⁶⁹. ومن هنا فإنّه صرّح في مقدّمة كتاب **في السير والسلوك** – الذي رجع فيه إلى كثير من الأحاديث والروايات – إلى أنّ هذا الكتاب

⁶⁵ رضا أكبريان، مناسبات دين وفلسفه در جهان اسلام (طهران: پژوهشگاه فرهنگ و اندیشه اسلامی، 1386 هـ. ش.)، الصفحة 656.

⁶⁶ انظر، محسن فيض الكاشاني، **الإنصاف**، تصحيح بهراد جعفري (طهران: مدرسه عالی شهيد مطهری، 1387 هـ. ش.)، الصفحتان 149 و150.

⁶⁷ المصدر نفسه، الصفحة 26.

⁶⁸ للمزيد، انظر، علم اليقين في أصول الدين، مصدر سابق، الصفحة 195.

⁶⁹ الصافي، مصدر سابق، الجزء 6، الصفحة 390.

شرح أسرار الدين التي هي عامل رقيّ وسعادة كلّ شخص هي الضمير حتّى يستفيد منه عشاق التوحيد،
وطلاب دين الله المجيد ويترقّون في معارج اليقين التي هي وحدها غاية آمال السالكين على الطريق
المستقيم⁷⁰.

ويقول في علّة تسمية الكتاب بما أنّ الكتاب الحاضر يضمّ حقائق وأسرار الدين الإسلاميّ المبين، لذلك
وضع له هذا الاسم "حقائق"⁷¹.

في الواقع، لا يمكن الوصول إلى حقائق الدين وأسراره إلّا عن طريق أحاديث وروايات المعصومين، عليهم
السلام، ومن دونها لا نصل إلى شيء. يقول الفيض إنّ ما يأتي عن طريق الوحي والشريعة هو وراء طور العقل،
فها هنا يخلّق العقل في آفاق لا علم له بما من قبل، ومسائل كالعلم بالله والمبدأ والمعاد، إذ لا يمكن للعقول العاديّة
أن تصل إليها من دون الوحي والنبوّة، ذلك أنّ عقول الأنبياء، عليهم السلام، تحوم في حظائر القدس، وترى ما
لا يراه الناس بعقولهم العاديّة، يطلّعون على جزئيات الأمور كاطّلاعهم على كمّيّاتها، ومن هنا كان العلم الذي
هو وراء أفق العقل ميسرّاً للأنبياء وما على البشر إلّا أن ينتفعوا به⁷². يمكن النفاذ على أصول المعارف الحقّة من
خلال التلقّي عن الأنبياء، وبواسطة الشرع والوحي، وكذا يمكن الوصول إلى مرتبة العقل الكامل التي هي مرتبة
الأنبياء الذي يتلقّون الوحي ويبلّغونه للناس.

لا منافاة بين ما أدركته عقول العقلاء وبين ما أعطته الشرايع والنبوآت ونطقت به السنة الأنبياء والرسول،
صلوات الله عليهم، من أصول المعارف، غير أنّه بقي لأوليّ العقول الصرفة من العلم بالله واليوم الآخر ممّا هو
وراء طور العقل الجمهوريّ أمور تتممها لهم الرسول، وإن نظر الأنبياء أوسع، ومعرفتهم بالغة إلى جزئيات
الأمور وتعيين الأعمال المقرّبة إلى الله تعالى كما هي بالغة إلى كليّاتها⁷³.

وهكذا أصبح واضحاً أنّه من وجهة نظر الفيض الكاشاني تمّ طور وراء طور العقل قد وصل إليه الأنبياء،
وأنه لا يمكن للعقول الصرفة أن تصل إليه من دون الوحي والرسول. ومن أجل أن يبيّن التوافق والانسجام بين ما

⁷⁰ محسن فيض الكاشاني، حقايق در أخلاق وسير وسلوك، ترجمة محمّد باقر ساعدي الخراساني (طهران: علميه اسلامي،
1360 هـ. ش.)، الصفحة 10.

⁷¹ المصدر نفسه، الصفحة 11.

⁷² انظر، علم اليقين في أصول الدين، الصفحة 5.

⁷³ المصدر نفسه، الصفحتان 4 و5.

يراه علومًا حقيقيَّةً، ومعارف استدلاليةً، وأسرار دين، وبين ما يأتي عن طريق الشريعة المحمّديَّة والأنوار الفيّاضة من أئمة أهل البيت، عليهم السلام، شرع بكتابة عين اليقين، وخلصته أصول المعارف، الذي يُعتبر أيضًا دورة مضغوطة في الأصول الفلسفيَّة للحكمة المتعالية. ويصرّح الفيض في مقدّمة الكتاب أنّه يريد أن يوفّق بين أصول المعارف، من جهة، وبين الآيات والروايات من جهة أخرى، فيقول إنّ هدفه من كتابة هذا الكتاب هو إثبات أنّه يمكن الجمع بين العلوم الحقيقيَّة والمعارف البرهانيَّة، من جهة، وبين أسرار الدين والرموز العرفانيَّة من جهة أخرى⁷⁴. وقد بنى نظريته عن علاقة العقل والشرع عبر هذا المبدأ. وهو يرى بأنّ العلاقة بينهما كالعلاقة بين العين والشعاع، إذ لا يمكن تحقّق الرؤية بالعين فحسب من دون شعاع، ولا الشعاع من دون عين، وعلى هذا الأساس فإنّ الطريق الوحيد للوصول إلى الحقيقة هو التوافق بين العلوم العقليَّة والعرفانيَّة وبين الشرع وروايات المعصومين، عليهم السلام. وعليه فإنّ شهرة الفيض تنبع، كما يقول السيّد حسين نصر، من مؤلّفاته في العلوم الدينيَّة والكلاميَّة أكثر من فلسفة الحكمة المتعالية التي شاد بنائها أستاذه صدر المتألّمين⁷⁵.

وهكذا نرى أنّ النهج الذي سار عليه الفيض في مؤلّفات المرحلة الثانية جعل من روايات المعصومين، عليهم السلام، قطبًا تدور حوله رحى مسائله النظريَّة والبرهانيَّة، خلافًا للمرحلة الأولى التي كان يسوق فيها الشاهد الروائي لإثبات صحّة ما يدّعيه من مفاهيم عقليَّة. والجدير بالذكر أنّ الفيض في توضيحه لأسرار العقائد يحكي عن موقفه المتأثرّ بملاّ صدرا، بحيث جعلت أفكاره الفلسفيَّة – العرفانيَّة منه شخصيَّة جامعة للمعارف والأحكام، كما يجمع نظامه الفكريّ ما بين الحكمة والتشيع كمذهب.

يعتبر ملاّ صدرا، وعلى خطى السهروردي، أنّه يمكن اقتناص العقل الكلّيّ وعالم ما وراء العقل بشبكة المعرفة، أمّا ملاّ محسن – وفي خطوة متقدّمة على هذا الطريق – فيعتبر أنّ العقل الكلّيّ وأئمة أهل البيت، عليهم السلام، الذين هم مظاهر النور المحمّديّ كلّ واحد⁷⁶. ولذلك فإنّ إحدى أبرز خصائص الفيض في هذه المرحلة هي ميله إلى الآيات والروايات، مع استحضار جانبها العرفانيّ⁷⁷.

⁷⁴ للمزيد، انظر، أصول المعارف، مصدر سابق، الصفحة 4.

⁷⁵ S. H. Hasr, *Preface on Osulolmaref* (Tehran: Islamic Publishing, 1353 H.S.), p. 5.

⁷⁶ مناسبات دين وفلسفه درجهان اسلام، مصدر سابق، الصفحة 657.

⁷⁷ غلام حسين ابراهيمي ديناني، ماجرای فکر فلسفی در جهان اسلام، الجزء 2 (طهران: طرح نو، 1379 ه. ش.)،

الصفحة 130.

الرؤية النقدية للفيض الكاشاني في مسألة القيامة

يرى الفيض بأنّ العلم الحقّ موجود عند المعصوم، عليه السلام، والمعصوم فحسب، لأنّه واقف على الأسرار الإلهية، فيما الآخرون محرومون منه، بل لا قدرة لهم على تحمّل أسرار⁷⁸. وعدّ القيامة والمسائل المتعلقة بعالم الآخرة من جملة الأسرار الإلهية التي لا يطلع عليها سوى المعصوم، لأنّه وحده العارف الحقيقيّ الذي انكشف له غطاء الغيب، فرأى الحقائق عياناً. إنهم، عليهم السلام، على معرفة تامّة بالساحة الأخرى من الوجود، وما يجري فيها من حساب وعقاب، وجنّة ونار، وعبور على الصراط، وشفاعة، وعذاب قبر، وحساب ميزان⁷⁹. وبما أنّ العوامّ قاصرون عن حفظ الأسرار الإلهية فلا ينبغي أن يخوضوا في هكذا مسائل، ويستشهد الفيض ببعض الروايات تأييداً لهذا المطلب، فينقل في كتاب **الحقائق** حديثاً عن الرسول، صلّى الله عليه وآله، أنّه رأى أصحابه يوماً يخوضون في مسألة المبدأ والمعاد، وكلّ أخذ يأتي بدليل على صحّة ما يقول، فغضب النبيّ، صلّى الله عليه وآله، حتّى احمرّت وجنتاه، وقال: هل أنا أمرتكم بهذا؟ وهل قلت لكم اضربوا القرآن بعضه ببعض، انظروا إلى ما أمركم الله به فاتبعوه، وإلى ما نهاكم عنه فانتهوا عنه⁸⁰. يرى الفيض الكاشاني أنّ الأبحاث المتعلقة بيوم القيامة معارف حقيقية لا يمكن أن يطلع عليها أيّ كان، وهي تحتاج إلى شروط ومقدمات لتطهير الباطن وإصلاح القلب كما أمرنا الشرع الإسلامي⁸¹، والقيام بالعبادات والأعمال البدنية، وبذلك نكون قد هيّأنا الأرضية المناسبة لتلقّي الاعتقاد الصحيح المأخوذ عن الوحي الإلهيّ وتعاليم المعصومين، عليهم السلام. وقد قال الفيض في كتاب **قرّة العيون**: "إنيّ ما اهتديت إلّا بنور الثقلين، وما اقتديت إلّا بالأئمة المصطفين"⁸².

وعلى الرغم من تأكيد الفيض على تلقّي المعارف من المعصوم لكنّه لم يُهمل أبداً المعرفة الفطرية التي هي بمثابة العقل في الوجود الإنسانيّ، وهي الشرع الباطن. فالعقل يشبه المصباح الذي يضيء الطريق أمام السالك، أمّا

⁷⁸ للمزيد، انظر، **حقايق در أخلاق وسير وسلوك**، مصدر سابق، الصفحة 22.

⁷⁹ المصدر نفسه، الصفحات 19 إلى 21.

⁸⁰ للمزيد، انظر، المصدر نفسه، الصفحات 93 إلى 95.

⁸¹ التأكيد الكبير للفيض على إسلامية تركية النفس ناتج عن شيوع تيار منحرف من العرفاء والمتصوّفة في عصره.

⁸² محسن فيض الكاشاني، **قرّة العيون في المعارف والحكم**، تحقيق محسن عقيل (قم: دار الكتاب الإسلامي، 1410 هـ.

ق.)، الصفحة 26.

الشرع وأحاديث المعصومين، عليهم السلام، فهي بمثابة الطريق لهذا المصباح، وإذا أغفل العقل التعاليم الشرعية يفقد تألؤه وضيائه، ويضلّ طريقه⁸³، وفي مثال آخر يشبّه العقل بالعين، والشرع بالنور الضروريّ للرؤية⁸⁴.

ومّا تقدّم من بيانات الفيض الكاشاني في مسألة علاقة العقل مع الشرع وتعاليم المعصومين، نرى مدى اعتداله في تقريره للحقائق. فالقيامة تقوم في برهة من الزمن، وعلاقتها الطبيعية حدوث الزلازل وتناثر النجوم واندكك الجبال وغير ذلك كما جاء بيانه في القرآن الكريم، كما أنّ النفوس كلّها تحشر وتبعث في زمان معيّن.

يفسّر الفيض الآيات القرآنيّة في كتاب الصافي تفسيراً لغويّاً روائياً بشكل كامل، مع صبغة عرفانيّة أحياناً، وكذلك يتطرّق إلى أخبار المعصومين، عليهم السلام. وقد فسّر سورة الزلزلة - خلافاً للمرحلة الأولى - على ما تشير إليه ظاهر الآيات من الحشر في المحضر الإلهيّ في زمن معيّن، طبعاً لا يعرفه إلاّ المعصوم، عليه السلام، واندكك الجبال وغيرها⁸⁵، وقد رأى أيضاً في تفسير سورة الواقعة بأنّ الآيات تشير - كما تدلّ عليه روايات المعصومين، عليهم السلام - إلى أنّ وقائع القيام سوف تحدث في الزمن⁸⁶. ولا مكان هنا للمسائل الفلسفيّة المبنيّة على الوجود ومراتبه، وتطابق مراتب القيامة مع مراتب الوجود الإنسانيّ، وبذلك نرى تغييراً في رؤية الفيض حول أمور تُعد جوهرية في المدرسة الصدرية، كالنظرة الكونية إلى الوجود ومراتبه، والقيامة ودرجاتها، ومقدار الاعتماد على العقل والمعرفة في فهم هذه الحقائق.

وصفوة القول إنّ من مجموع ما تقدّم نرى أنّ النظرة الوجودية لملأ صدره بلحاظ القيامة ومراتبها احتلت مكاناً مميّزاً في النظام الفكريّ للفيض الكاشاني، بحيث نراه يعيد تفسيرها باتّخاذ مواقف متبانية منها أثناء مراحل حياته المختلفة، وخصوصاً بعد ظهور مؤلفاته المتأخّرة التي تدلّ على ظهور شخصيّة فكريّة مستقلة وناضحة، لم تخرجه عن زمرة حكماء الحكمة المتعالية ولكنّها جعلت منه صاحب نظر في أبحاث فكريّة متنوّعة.

مراجع إضافية

صدر الدين الشيرازي، تفسير آيه مبارکه نور، ترجمة وتصحيح محمد خواجهي (طهران: انتشارات مولى، 1362 هـ. ش.).

⁸³ حقايق در أخلاق وسير وسلوك، الصفحة 78.

⁸⁴ أصول المعارف، الصفحة 195.

⁸⁵ محسن فيض الكاشاني، الصافي، الصفحتان 840 و 841.

⁸⁶ المصدر نفسه، الصفحة 648 إلى 658.

_____، رسالة الحشر (طهران: انتشارات مولی، 1377 هـ. ش.).

محس فیض الكاشانی، الكلمات المخزونة، تصحیح علی رضا أصغری ومهدی حاجیان (طهران: مدرسه عالی شهید مطهری، 1387 هـ. ش.).

_____، اللئالی، تصحیح علی رضا أصغری ومهدی حاجیان (طهران: مدرسه عالی شهید مطهری، 1387 هـ. ش.).

_____، المحجة البيضاء في تهذيب الأحياء (قم: نشر اسلامي، 1383 هـ. ق.).

_____، أنوار الحكمة، تحقيق وتعليق محسن بيدارفر (قم: نشر بيدار، 1383 هـ. ش.).